المعرّف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/UIUZ5029

هيئة التحرير | Editorial Board

عالم التمويل الخارجي (الأوفشور): الثروة المتخفية والاستعمار الجديد

Offshore: Stealth Wealth and the New Colonialism

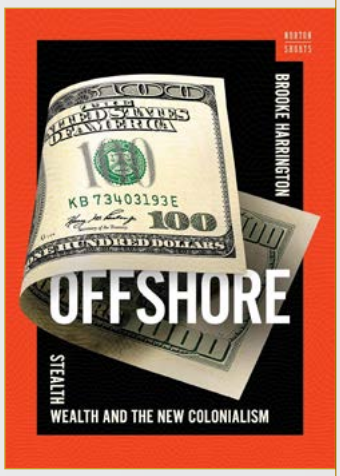

عنوان الكتاب في لغته:

Offshore: Stealth Wealth and the New Colonialism.

عنوان الكتاب: عالم التمويل الخارجي (الأوفشور): الثروة المتخفية والاستعمار الجديد.

المؤلف: بروك هارينغتون.

الناشر: نيويورك: ويليام واردر وشركاؤها.

سنة النشر: 2024.

عدد الصفحات: 140 صفحة.

يتناول هذا الكتاب ظاهرة التمويل الخارجي Offshore Finance ويصفها بأنها نظام سريّ يكرّس تراكم الثروة لدى الأثرياء في أوضاع الإفلات من الرقابة القانونية. وفي هذا الكتاب، تسعى بروك هارينغتون للكشف عن آليات عمل هذا النظام وأثره في تأكّل المؤسسات الديمقراطية، وإضعاف الاقتصاد الرأسمالي، وإضعاف قدرة الدولة على توفير الخدمات العامة، وتدمير البيئة.

يعيش المنخرطون في هذا النظام من النخب الثرية فيما يشبه الفضاء الموازي، المعروف بـ "عالم الأوفشور"، وهو فضاء قائم على منظومة خفية تتيح لهم التهرب من الالتزامات الضريبية، والتحايل على القوانين البيئية والعمالية، وتجاوز أنظمة تمويل الحملات السياسية وغيرها من القوانين التي يُنظر إليها بوصفها عوائق تجاه مصالحهم الاقتصادية. وتضم هذه النخب فئة من الملياردريات الذين يلجؤون إلى ملاذات ضريبية في جزر خاصة لاجتناب دفع الضرائب، إلى جانب شخصيات مثل الأوليغارش الروس الذين يُخفون أصولهم في يخوت فاخرة هربًا من العقوبات الدولية. وبهذه الكيفية، فإنّ هؤلاء – بحسب المؤلفة - لا يعيشون في معزل عن القانون فحسب، بل في معزل عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يعيشه غالبية الناس أيضًا.

ومؤلفة هذا الكتاب هي أستاذة لعلم الاجتماع الاقتصادي في كلية دارتموث، وهي أيضًا مستشارة لدى كل من منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) والبرلمان الأوروبي. وقد ألّفت عددًا من الكتب، من أبرزها كتابها الأكثر مبيعًا **رأس المال بلا حدود** *Capital Without Borders*. وقد اعتمدت فيه منهجًا

ميدانيًّا امتد إلى نحو ثمانية أعوام، عملت خلالها مستشارة ثروات Wealth Manager، وتنقّلت بين العديد من العواصم الغربية، إضافة إلى دول في أميركا اللاتينية وأفريقيا، وجزر المحيط الهندي، والبحر الكاريبي، والمحيط الهادئ. وأجرت مقابلات معمّقة مع عشرات من مديري الثروات في تسعة عشر بلدًا.

وقد توصّلت من خلال عملها الميداني إلى أن النظام المالي العالمي القائم على التمويل الخارجي هو امتداد لبُنى استعمارية تقليدية، أدّت إلى نشوء طبقة إمبريالية جديدة تتكوّن من بضعة آلاف من أصحاب الملياردیرات الذين ينهبون خيرات العالم من دون رقيب أو مساءلة. وترى المؤلفة أن هؤلاء يُشكلون طبقة خفية تدير "إمبراطورية غير مرئية" لا تخضع لسلطة دولة بعينها، بل تحكمها مصالح نخبة عالمية صغيرة. وتؤكد أن هذا العالم "الأوفشور" لا يُعبّر عن ظاهرة تهرّب ضريبي فحسب، بل يُمثّل شكلاً جديدًا من أشكال الاستعمار الحديث، وأنّ له دورًا محوريًّا في تفسير الأزمات العالمية الراهنة؛ بما فيها انعدام المساواة، واستمرار الفقر، وتخلّف التنمية، وتهديد استقرار المجتمعات، وهي تكلفة تدفعها الشعوب في حين تنعم بها فئة قليلة من النخبة العالمية.

يتألف الكتاب من خمسة فصول يستعرض أولها الجذور التاريخية لنظام التمويل الخارجي، مع إبراز ارتباطه الوثيق بالإرث الاستعماري. ويوضح الفصل الأوّل كيف أنّ القوى الاستعمارية، وفي مقدمتها المملكة المتحدة، أنشأت ملاذات ضريبية في مستعمراتها السابقة من أجل توفير بيئة آمنة لتحويل الثروات وتجنّب الالتزامات الضريبية؛ ما أسفر عن نشوء نظام مالي عالمي يتّسم بالسّرية ويعاني غيابًا للشفافية.

أما الفصل الثاني، فيتناول الآليات التي يوظف الأثرياء من خلالها هذا النظام، بوصفه وسيلة للالتفاف على القوانين والتشريعات الوطنية، بما في ذلك القوانين البيئية وقوانين العمل، وهو ما يؤدي إلى تآكّل الثقة بالمؤسسات الديمقراطية وتعميق مظاهر التفاوت الاجتماعي.

وأما في الفصل الثالث، فتبيّن المؤلفة كيفية استمرار النمط الاستعماري في شكله المعاصر عبر منظومة الأوفشور، بحيث تستفيد الدول الغنية من الملاذات الضريبية المنتشرة في البلدان النامية، على نحو يعزز الهيمنة الاقتصادية والسياسية ويُسهم في استنزاف الموارد وتقويض السيادة الوطنية في هذه الدول.

ويعرض الفصل الرابع الفارق اللافت للانتباه بين الثروات الهائلة المخفية في الملاذات الضريبية، والحرمان من الحاجات الأساسية داخل المجتمعات الفقيرة، موضحًا كيف أنّ تهرّب النخب الثرية من الضرائب يؤدي إلى تفاقم الأعباء الضريبية على الطبقات الوسطى والفقيرة، إضافةً إلى تأثيره السلبي في تمويل الخدمات العامة؛ مثل التعليم والرعاية الصحية.

ومن ناحية أخرى، يركز الفصل الخامس على التأثير السلبي لهذا النظام في الاقتصادات المحلية، شارحًا أنّ تدفق الأموال غير المشروعة إلى هذه الملاذات يُفضي إلى تنامي الفساد، وتقويض سيادة القانون، وزيادة أسعار العقارات، وهو ما ينعكس سلبيًّا على نوعية الحياة بالنسبة إلى المواطنين العاديين.

اختتم الكتاب، الذي اختارته مجلة **ذي نيويوركر** *The New Yorker* وصحيفة **فاينانشيال تايمز** *Financial Times* بوصفه من بين أفضل الكتب في عام 2024، بتقديم نصيحة إلى وكالات الضرائب والمنظمات المتعددة الجنسيات متعلقة بكيفية الحد من التجاوزات في نظام التمويل الخارجي، وقوامها "استخدام القوى المجتمعية لمصلحتكم". وعلى سبيل المثال؛ في حين تتغير القوانين ببطء، فإن الرأي العام يمكن أن يتغيّر بسرعة وبفاعليّة كبيرة. وفي نظر المؤلفة، يمكن أن يكون التشهير أو الوصم الاجتماعي (كشف

الوجه السلبي لممارسة فرد أو جهة على نحو يُلحق بها العار في نظر المجتمع) بمنزلة "سلاح ذي قوة هائلة، ولكنه غالبًا ما يُوجَّه توجيهًا خاطئًا؛ إذ نادرًا ما يُستخدم ضد الفاعلين السيئين فعلاً. وحين يُستخدم، فإن الوصم قادر على تحريك ما لا يتحرك" (ص 100). والخطوة الأولى لتغيير الرأي العام من أجل فضح استخدام التمويل الخارجي هو رفع الوعي المتمثّل في وجود المشكلة (هدف هذا الكتاب). أمّا الخطوة الثانية، فهي تنظيم مظاهر الرفض العلني من جهة قادة الحركات الاجتماعية والجِيل الجديد، ولا سيما المؤثرين منهم في وسائل التواصل الاجتماعي.

في نهاية الكتاب، أدرجت المؤلفة قائمة ثرية من المراجع التي اعتمدت عليها أساسًا في تعميق فهمها للظاهرة، وهي من مؤلَّفات مؤرخين، واقتصاديين، وأنثروبولوجيين، وعلماء سياسة، وصحافيين.